الطبعية والصنعة فى الفن

للأستاذ أحمد مصطفى حافظ

الفنانون : الشاعر ، والأديب المترسل ، والموسيقار ، والمصور ، والمطرب ، والمثال ، والرسام .. أفراد فى مجموع قبل كل شئ

والفرد فى المجتمع يعطى ويأخذ ويؤثر ويتأثر ...

وعلى قدر استعداد الفرد لتلقى تأثير المجتمع — من غير أن يشل هذا التأثير حيوية نزعة من نزعاته — يكون نجاحه المتكامل فى الحياة الاجتماعية . والطراز الانطوائى من الناس إذا وجد فى الفن متنفسا لطاقته الكمونة ، كما ثر « الرومانسيين » قد يصل تعبيره إلى أقصى ما يوصل إليه الأداء الفنى من الروعة والإبداع ... وهذا يتفق كثيراً لشاعرة كفدوى طوقان ، التى تقول فى قصيدتها الأخيرة « الصخرة » بالعدد ٩٧٢ من الرسالة :

أنظر هنا ! الصخرة السوداء شدت فوق صدرى
بسلاسل القدر العتى
بسلاسل الدنيا البغى
أنظر إليها كيف تطحن تحتها ثمرى وزهرى
تحت مع الأيام ذاتى
سحقت مع الدنيا حياتى
دعنى فلن تقوى عليها . لن تفك قيود أسرى
سأظل وحدى فى انطواء
مادام سجانى القضاء

إلى أن تقول :

ستظل روحى فى انقفال
سأظل وحدى فى نضال
وحدى مع الألم الكبير . مع الزمان . مع القدر
وحدى وهذى الصخرة السوداء تطحن .. لا مفر !

كما اتفق كثيرا الشاعر كالمرحوم فخرى أبو السعود الذى يقول مناجيا الموت :

لأنت بلاغ النفس حيرى مروعة ... بوادى شكوك جمة وهموم
وفيك اجتماد من جهالة جاهل ... ومن قول مأفون وفعل لئيم
وعندك نسيان وطول زهادة ... لكل مراد فى الحياة مقيم
لعمرى ما حى يأروح منزلا ... على الأرض من بال بها ورميم
ولو علم الجانى لما جاد عامداً ... على خصمه بالموت جود كريم
وتمحو بداك الحقد والخوف والأسى ... وكل بلاء فى النفوس قديم
وأنت تريح الفكر من كل معضل ... يظل له فى حيرة ووجوم
وتطوى عن الأجفان صفحة عالم ... ملىء بأنواع الشرور ذميم
وتطوى كتاب الأمس طيا وما مضى ... به من بغيض ذكره وأليم
عزاء لبعض الناس أنك قادم ... وأن شقاء العيش غير مقيم

وهذان الشاعران اللذان سقناهما فيهما صدق وعمق فنيان ، نتجا عن شعور صحيح ، أجنحته أحزان الوحدة وصروف القدر ... ولكن آفة الانطواء أن يتفعل الشاعر تحت تأثير القيم الاجتماعية انفعالا فنيا مصنوعا لا مطبوعا ، فيكون تعبيره الفنى واجبا ملتزما به ، أو تقليدا منساقا إليه .. لا أداء حرا صادرا عن فاعلية فائضة من النفس ... فشاعر كبشار الضرير ، حين يقول متغزلا :

يا منظرا حسنا رأيته ... من وجه جاريةٍ فديته
بعثت إلى تسعى ومنى ... ثوب الشباب وقد طويته

لا يخفى ما يقوله هذا من بعد عن الصدق والواقعية ، علاوة على ركاكة النسج وتكلف المعنى والقافية تكلفا ظاهرا .. وإلا فمن (هو) فى ميدان الوسامة والغرام ، حتى .. تسأله هى أن يغازلها ؟ وإذا أردت دليلا قريبا على ذلك فلاحظ معى ، إن شئت ، الظروف الاجتماعية فى عصر المرحوم أحمد شوقى بك ، التى كانت تزين له أن يتصدر دولة الشعر ، تجد أن دولة الشعر

كان عليها فى هذا العصر واجبات ، تقتضيها الضرورات السياسية ومن هنا كان نجاح شوقى غير متكامل فى الحياة الاجتماعية .. فجاء شعره الوطنى والاجتماعى دون وطنيات واجتماعيات شاعر النيل الاجتماعى النزعة ... ذلك لأن شوقيا لم يكن اجتماعى النزعة كحافظ وليس هذا عيبا ؛ وقد قدر أن يكون لكل فرد نوازعه النفسية .. فشوقى كان من الطراز الانطوائى ...

ولو ترك العنان لشاعرية شوقى لفاضت فيضا ذاتيا لا أثر للاحداث السياسية والاجتماعية فيه ، ولأخلص لناموس الطبيعة وحرية الفن ؛ وإن كان هذا لا يمنعنا من الإقرار بروعة شعره الذى صدر — فى غير الأغراض التى أشرت إليها — عن فاعلية فائضة من أعماق وجدانه ...

وما أروع خمريات أبي نواس ، الذى نراه يبلغ الذروة فيها لطبيعية انفعاله ، اضطرم نتيجة هيامه بالخمر معروف عنه ، بلغ حد الهوس ! فجعله يقول :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة ، وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يصيبهم إلا بما شاءوا
لتلك أبكى ولا أبكى لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء

وجعله يقول :

إن على الخمر بآلائها ... وسمها أحسن أسمائها
لا تجعل الماء لها قاهرا ... ولا تسلطها على مائها
كرخية قد عتقت حقبة ... حتى مضى أكثر أجزائها !
فلم يكد يدرك خمارها ... منها سوى آخر حوبائها
دارت فأحيت غير منمومة ... نفوس حراها وأنضائها
والخمر قد يشربها معشر ... ليسوا إذا عدوا بأكفائها !

ويقول :

قم يا غلام فقد بدا الفجر ... واسق النديم فما به سكر
من قهوة ما كنت أحسبها ... فى الكأس .. لولا اللون والنشر
رقت .. فما تدرى أبارقها ... أبها هواء ، أم بها خمر !

وأخيرا ، وليس آخرا ، ليت أدباءنا — الذين يصرون على أن يكونوا شعراء على الرغم من انفعالهم وتعلمهم وإحجامهم وضعف أدواتهم الشعرية — يتأسون ويعتبرون بصدق ابن المقفع وصراحته ، حين أجاب من سأله عن السبب فى عدم قوله الشعر ، بقوله : « الذى أرضاه لا يجيئنى ، والذى يجيء لا أرضاه » ومن رأيى أن ابن المقفع أسوة حسنة ، وقدوة صالحة ...

فهل تنفع شيئا ليت ؟ هل حقا يستجيب هؤلاء ويتفضلون بإراحة أنفسهم وإراحة الناس وإراحة الفن جميعا ؟

إنا لمنتظرون ؛ ونخشى أن يطول انتظارنا إلى يوم يبعثون !!

الدوس — أحمد مصطفى حافظ

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثانى أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة